الكرامة
كرامة الوطن من كرامة المواطن

عن روح السويس: المجد للمقاومة

د. رءوف عباس

21 نوفمبر 2006

أقامت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ندوة على مدى ثلاثة أيام بالإشتراك مع مركز البحوث العربية والأفريقية ، خصصت لتأميم قناة السويس و العدوان الثلاثى " 1956 " بعد عشرين عاما ، تناولت ما ترتب على الحدث من آثار على المستوى المحلى والإقليمى والدولى ، وانتهى معظم المتحدثين إلى أن المقاومة الشعبية فى بورسعيد الباسلة ، كانت حجر الزاوية فى الإدارة السياسية للأزمة وما أسفر عنها من نتائج أبرزها نهاية الحقبة الاستعمارية التقليدية لصالح التحرر الوطنى والنضال ضد الإمبريالية الأمريكية.

كانت المقاومة الشعبية فى بورسعيد وراء إعاقة تحرك قوى العدوان لإحتلال منطقة القناة كلها حتى السويس وإسقاط النظام الثورى الذى جرؤ على قاعدة المصالح الإستعمارية "قناة السويس" وإستردها من الغاصبين، فلو مر عبدالناصر بفعلته "الشنعاء" بسلام ، لكانت سابقة خطيرة تحذو حذوها الشعوب المستعمرة ، فتعمل على تحرير مواردها الإقتصادية من السيطرة الأجنبية. وكان صمود بورسعيد وتعطيل الزحف على منطقة القناة دافعا محركا للقوى الدولية التى ساندت مصر، وتغير بذلك وجه التاريخ، فدقت قناة السويس وحرب العدوان المسمار الأخير فى نعش الاستعمار البريطانى والفرنسى.

وبعد خمسين عاما من هذا الحدث التاريخى العظيم، جاءت المقاومة العسكرية العراقية لتفشل المشروع الإمبراطورى الأمريكى الذى كان يخطط لاحتلال سوريا ثم إيران بعد نجاحه فى احتلال العراق ، حتى يعيد رسم خارطة الشرق الأوسط بما يخدم المصالح الصهيو-أمريكية.

لم يفت الدمار الذى أصاب العراق ومئات الألوف من الشهداء فى عضد المقاومة، كما لم تنجح إختراقات الموساد وإثارة الفتن الطائفية فى جعل جيش الإحتلال الأمريكى وشريكه الصغير البريطانى ينعم بالراحة، فحولت المقاومة العراق إلى مستنقع غاصت فيه أقدام المحتلين، وكلفتهم نحو الثلاثة آلاف قتيل وما يزيد على العشرين ألف جريح معوق، وإرتفعت تكلفة الإحتلال لتصل إلى نحو 400 مليار دولار، مما كان له أثره فى إنتخابات التجديد النصفى فى الكونجرس الأمريكى، والدعوة للبحث عن مخرج من المأزق العراقى. ولولا المقاومة العراقية الباسلة لما سارت الأمور على هذا النحو، ولما مات "مشروع الشرق الأوسط الجديد" قبل أن يولد.

وحددت المقاومة العراقية – فى واقع الامر – نهاية المشروع الإمبراطورى الأمريكى تماما كما حدث لبريطانيا فى حرب السويس قبل نصف قرن. هذه النتيجة ليست من إجتهادى، ولكنها خلاصة ما توصل إليه ريتشارد هاس – رئيس مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية – فى مقال له نشر الأسبوع الماضى فى مجلة "الشئون الخارجية" الفصلية الشهيرة التى طالما عرفت صفحاتها الدراسات الموحية بتوجهات السياسة الأمريكية. وريتشارد هاس ليس باحثا أكاديميا وحسب، وإنما شغل أيضا مناصب فى الإدارة الأمريكية فى عهود الديمقراطيين، فخدم فى المخابرات المركزية والبيت الأبيض، والمجلس الذى يرأسه أحد مراكز الفكر الاستراتيجى، ومستودع خبراء السياسة الخارجية ممن لهم سجل حافل فى خدمة الولايات المتحدة.

يرى هاس فى هذه الدراسة التى لقيت اهتماما كبيرا من وسائل الإعلام الأمريكى والدولى، أن المعالجة السياسية وليس العسكرية ضمنت حماية المصالح البترولية والإستراتيجية فى الشرق الأوسط وحققت قدرا كافيا من الهيمنة الأمريكية على الإقليم دون تحمل خسائر ذات بال، وأن تحالف المحافظين الجدد مع الليكود فى الكيان الصهيونى كان المحرك الأساسى للمعالجة العسكرية فى إطار مشروع إمبراطورى، وأن هذا التحول من المعالجة السياسية إلى العسكرية بدأ كضرورة لا فكاك منها لتحرير الكويت من إحتلال العراق، ولكن ما حدث عام 2003 عند إحتلال العراق كان محض إختيار الإدارة الأمريكية فى إطار ما سمى "الحرب على الإرهاب " فنتج عنه "إطلاق العنان للإرهاب" فى الإقليم كله، وعلو شأن التيار الإسلامى الأصولى فى السعودية ومصر ولبنان "حزب الله" وفلسطين "حماس والجهاد".

ويرى ريتشارد هاس ضرورة العودة إلى المعالجة السياسية لكل ما اتصل بالمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، مع رسم سياسة للخروج "الآمن" من العراق ويحذر من الخروج المفاجئ وما قد يترتب عليه من خسائر فادحة. غير أن ذلك - فى تقديره- لا يعنى إسترداد الولايات المتحدة لنفوذها السابق فى الإقليم قبل إتجاهها إلى التدخل العسكرى، ولذلك

سيعقب الخروج الامريكى من العراق فترة من الفوضى لا تعم العراق كله وحده بل تمتد إلى بقية بلاد الشرق الأوسط. ستظل هناك حكومة مركزية ضعيفة تعجز عن فرض القانون والنظام، وسيغرق العراق فى صراعات طائفية دامية كما أن لبنان مرشح للفوضىأيضاً نتيجة ما حققه حزب الله فى حربه مع (إسرائيل) وتزداد حماسنفوذاً لذلك يقترح أن يتم التفاهم والتنسيق بين الولايات المتحدة وسوريا وإيران من ناحية، وبين أمريكا و(إسرائيل) من ناحية أخرى. ويرى أن حالة الفوضى التى ستسود الأقليم قد تستغرق من خمس سنوات إلى خمسين سنة!! وأن ذلك يتطلب استمرار "الحكم الاستبدادى" فى ما أسماه بـ"الدول المعتدلة فى الشرق الأوسط" وضرب لذلك مثلا: مصر والأردن والسعودية.

وهكذا يقدم ريتشارد هاس وصفه لعلاج المأزق الذى وضعتهم فيه المقاومة العراقية الباسلة، من نفس المنطلق الذى عبرت عنه كوندوليزا رايس فى أغسطس الماضى عندما وصفت العدوان الصهيونى على لبنان وما يجرى بالعراق بأنه آلام المخاض لولادة شرق أوسط جديد، فجاء هاس ليبشرنا بفترة من الفوضى العارمة فى جانب والحكم البوليسى الاستبدادى فى جانب آخر، وجمود القضية الفلسطينية على ماهى عليه لمدة قد تصل إلى نصف قرن فالشعوب تسقط تماما من حسابهم، وينظرون إلى العرب نظرتهم إلى قطعان الدواب، تحركهم عصا الراعى وتردهم كلاب الحراسة إلى الدرب المطلوب. والحق أن لهم العذر كل العذر، فهم لا يرون مشروعا سياسيا عربيا مقابلا لمشروعهم الإمبريالى ولا يرون أمامهم حركة سياسية شعبية موحدة، بل شراذم هنا وهناك وجدل بيزنطى لا يقود إلى وحدة الهدف فى مواجهة الخطر الداهم الذى يتهددنا.

وإذا كان ريتشارد هاس قد قدم فى دراسته رأى خبير بالسياسة الأمريكية ومساربها، وكانت رؤيته للأوضاع السياسية فى الشرق الأوسط على مدى نصف القرن الحالى من زاوية المصالح الإستراتيجية الأمريكية، فهناك من الأكاديميين الأمريكان ما يرون صورة للعقود الثلاثة القادمة تختلف عما توقعه هاس.

ففى 11 سبتمبر نشرت صحيفة "الأندبندانت" اللندنية ثلاثة مقالات كلفت ثلاثة من كبار المؤرخين بكتابتها بحيث يقدم كل منهم تصوره لما سيكون عليه الحال عام 2031 " بعد ثلاثين عاما من حادث 11 سبتمبر".

جاء مقال بول كينيدى "المؤرخ الأمريكى المعروف" معبرا عن تأثر الولايات المتحدة بالانتكاسة التى أصابتها نتيجة حرب أفغانستان واحتلال العراق حتى إنها احتاجت إلى عشر سنوات بعد انتهاء حكم بوش للتخلص من الأزمة المالية التى ترتبت على سياسة التدخل العسكرى ولذلك فضلت الإدارة الأمريكية إتباع سياسة التعاون مع الدول الأخرى ومع المنظمات الدولية، ورسمت سياستها الخارجية على عدم التورط فى أى أعمال عسكرية وحل المشاكل سياسيا، وتنبأ بتحقيق الهند والصين درجة متقدمة من النمو الإقتصادى والإجتماعى وإحتلالهما المكانة التالية لأمريكا فى السياسة الدولية، على حين احتلت روسيا المرتبة الرابعة وقنعت أوروبا بما حققته من مكانة فى الاقتصاد العالمى تلى دول آسيا، وتزداد الأمورسوءاً فى أفريقيا التى تسودها الصراعات العرقية والحروب الأهلية والأوبئة والمجاعات.

أما بالنسبة للشرق الأوسط فقد رأى بول كينيدى أنه سوف يستغرق عقدين من الزمان فى محاولة تحسين ظروف التنمية عما كانت عليه فى بداية القرن الحادى والعشرين وتنبأ بسقوط النظم الإستبدادية فى مصر وسوريا والسعودية فى موعد أقصاه عام 2012 وأن إيران ستستكمل بناء قوتها النووية وتنجح فى مسح تل أبيب من الوجود ولكن الحكومة الأمريكية آثرت السلامة حتى لاتتورط فى حرب ذرية من أجل إسرائيل التى لم تعد تحتل لديها نفس المكانة التى كانت لها فى مطلع القرن.

والمقال الثانى لمايكل كلارك أستاذ دراسات الدفاع بكنجز كوليج بلندن ذهب فيه إلى أن الغرب سوف تشغله الثورة التكنولوجية والتنافس فى هذا المجال مع الهند والصين عن التفكير فيما كان يسمى بـ الإرهاب والخطر الإسلامى" كما شغلته مشاكل تغير الطقس تغييرا جذريا والأخطار التى تتعرض لها البيئة وتنبأ أن يغرق الشرق الأوسط فى الفوضى والصراعات لعدم وجود قيادة سياسية رشيدة تجمع شعوبه حولها وأن البلاد الإسلامية فضلت العودة إلى ثقافة العصور الوسطى وانفصلت تماما عن غيرها من البلاد، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى توقعاته بالنسبة للكيان الصهيونى.

أما المقال الثالث فكتبته ليزا جاردين الأستاذة بجامعة لندن، وتنبأت فيه بإعادة رسم خارطة العالم السياسية بعد إختفاء "الدول القومية" وظهور وحدات إدارية أصغر مساحة يلتزم سكان كل منها بقوانينها وينسحب هذا التفكك على الولايات المتحدةأيضاً وذلك نتيجة تزايد نسبة تعداد السكان الآتين من أصول إسبانية وإحرازهمقدراً كبيراً من التأثير على السياسة الأمريكية وبذلك لم تعد (إسرائيل) تعنيهم فى شئ، ومن ثم لم تعد الولايات المتحدة تهتم سوى بمصالحها التجارية مع بلاد الشرق الأوسط على أسس تعاقدية مع تحكيم المنظمات التجارية الدولية فى أى خلاف ينشأ عن التعامل مع مختلف الأطراف.

ورغم ما بين الرؤى الثلاث من اختلاف، فمن الملاحظ أن تفاوت النظرة إلى الكيان الصهيونى بين إسقاطه من الحساب تماما فى المقال الثانى وعدم الأهتمام به وتركهوحيداً للتعامل مع القوى الإقليمية دون أن يحظى بالمساندة الأمريكية لا شك يكشف عن درجة الضيق التى أثارت سخط الأكاديميين الأمريكان نتيجة النفوذ الواسع للوبى الصهيونى وتأثيره البالغ على صناعة القرار الأمريكى إلى درجة تبنى سياسة شرق أوسطية تتعارضتماماً مع المصالح الأمريكية.

ومهما كان الأمر، فالدلالة البارزة لذلك كله فشل السياسة التوسعية الأمريكية بفض المقاومة العراقية التى جعلت من العراق "سويس أخرى" بالنسبة لأمريكا، على حد تعبير ريتشارد هاس، أما الدلالة الأخرى فتتمثل فى استشراف المستقبل وإعداد السيناريوهات المختلفة له وما أحوجنا إلى استشراف مستقبلنا من خلال مشروع نهضوى عربى تلتف حوله جبهة موحدة للحركة السياسية تتخذ منه دليل عمل لتصفية الطغيان وإصلاح ما أهدره الفساد فهل من مجيب؟